لغو الصيف

بقية المنشور على صفحة ٦

رجل من الناس أى جيل من الأجيال ، تركتهم قوما كراما يكرمون آباءهم وامهاتهم ، ويؤثرون ابناءهم وبناتهم ، ويشفقون من الآلام ، ويسرعون الى اللذات ، ويكثرون القول ، ويقصدون فى العمل ، ويفرون من الدور ، ويستقرون فى الأندية ، ويطيلون الحوار فى الأدب والسياسة ، ويقرأون الصحف ويعبثون بكتابها . . . قالت يا له من سيل جامح لا يقف ولا يهدأ ولا يتئد ، ولا يتخير ما يحمل ، ماعن هذا أسألك ، وماطلبت اليك ان تصور لى المصريين كما تراهم انت بهذا الرأى المظلم القاتم ، الذى لا يعجب بشىء لا يرضى عن شىء ، بل ينكر كل شىء ، انما سألتك ... قال يا له من جدول هادىء متئد ، عذب ظريف ، لا يحمل غثاء ولا جنادل ، وانما هو صافى الصفحة نقى الأديم ، كله رضى وكله ابتهاج ، وكله أمل ، إنما تسألينى عن الأدباء اليس هذا ما كنت تريدين ، قالت هو هذا ، ومتى رأيتنى أتحدث اليك عن غير الأدباء ؟ قال فقد تركت الأدباء فى شغل شاغل وهم مقيم ، يقولون فيطيلون ، ويعملون فلا يبلون ، وكأنهم هذا القطار الذى يهم بالحركة فيكثر فيه الضجيج والعجيج والقعقعة والاضطراب ، وهو ثابت فى مكانه لا يريم ، لأن الله لم يأذن له بالحركة بعد ، او لأن أداة من أيسر أدواته لم يتح لها ان تشترك فى العمل مع أخواتها ، قالت وما ذاك ؟ قال إنهم يذكرون حافظا ، فقد دار العام على وفاته ، ولم يصنع له أحد شيئا . فهم يلومون أنفسهم وهم يلومون غيرهم ، وهم يلومون مصر كلها ، يلومون الشعب لأنه قصر غير عامد ، ويلومون الحكومة لأنها تعمدت التقصير ، حتى إذا أسرفوا فى اللوم واعياهم الاسراف عزوا أنفسهم وعزوا الشعب الذى قصر عن غير عمد ، والحكومة التى قصرت عن عمد بأن حافظا كان أديبا حقا ، فلا غرابة فى ان تدركه حرفة الأدب . وقد كان حافظ رحمه الله حسن الحظ ، ميسرا له فى الأمر بالقياس الى زميله فى حرفة الادب منذ أكثر من الف سنة . فانت تذكرين أنها قد أدركت ابن المعتز فانتزعته من الخلافة ، ولما يقم فيها يوما ولم يكفها أن تنتزعه من الخلافة ، فانتزعته من الحياة على شر الاحوال وأشدها نكرا ، اما حافظ فقد كان بائسا فى حياته لم يعرف النعيم ، والبؤس أيسر من الخلع ، والبؤس الدائم ايسر من البؤس الطارىء ، بعد طول النعمة وحسن الحال ، وقد مات حافظ على فراشه ، والموت الهادىء أيسر من الموت العنيف ، وحافظ بائس بعد موته لم يجتمع له الناس ، ولم تمتلىء له الأوبرا ، ولم تلق فيه الخطب المدبجة ، ولا القصائد المنمقة . وقبر حافظ مجهول أو كالمجهول ولكن هذا البؤس كله ليس شيئا بالقياس الى بؤس آخر أشد وامض ، وهو هذا الثناء المتكلف ، وهذا الاكبار المصنوع ، وهذه الخطب والقصائد التى لا يراد بها وجه الله ، ولا وجه من قيلت فيه ، وانما يراد بها وجه الذين يصرفون السياسة ويسيرون أمور الناس كما يحبون ، والى حيث يحبون ، فقد كان حافظ ومازال بائسا ، وكان حافظ ومازال شقيا ، ولكن شقاء حافظ سعادة ، وبؤس حافظ نعيم ، وما كان أحق شوقى رحمه الله واجدره بأن يشارك حافظا فى هذا البؤس المجيد ، فقد كان شوقى كما كان حافظ مجدا لمصر وللشرق وللادب العربى ؛ ولكن السياسة استأثرت بشوقى فازدردته ازدرادا ، وعجزت عن ان تستأثر بحافظ ، وأى غرابة فى هذا ؟ لقد كان شوقى رحمه الله هينا لينا رفيقا رقيقا ، وكانت فى حافظ صلابة الشعب وغلظته ، وخشونة الشعب وشدته

قالت وهى محزونة : ولكن بؤس حافظ مهما يكن مجيدا بالقياس اليه فهو عار على مصر ، ومن حق مصر لنفسها ان تكشف هذا العار ، وكانا قد بلغا ناديا من هذه الاندية التى يكون فيها الرقص مع المساء والتى يؤخذ فيها الشاى ، فاتخذا مكانا منزويا فيه دون ان يتفقا على ذلك ، انما هى رغبتهما فى اتصال الحديث ، وزهدهما فى هذا المتاع الذى يتهالك عليه الناس ، ولم ينقطع حديثهما وقتا طويلا ، انما هى لحظة طلبا فيها الى الخادم ما كانا يريدان ، ثم اتصل بينهما الحديث ، ولكنه لم يمس أمير الشعراء ولا شاعر النيل . قال ومع ذلك فلم تسألينى عن مصر والمصريين وانت ترين مصر وأدباءها فى فرنسا كأحسن ما تحبين ان تريهم ؟ قالت فى فرنسا ؟ واين ذاك ؟ قال ماذا تصنعين اذن منذ تركت السفينة ؟ ألا تقرئين ؟ قالت لا . قال بل تكتبين وقد كان ينبغى ان أفهم هذا ، ولعلى قد فهمته حين رأيت تلك الصحف المنشورة على المائدة ، والتى اسرعت الى جمعها واخفائها حين رأيتنى مقبلا عليك كأنك خفت أن أمد اليها يدا ، أو أن أختلس اليها نظرة ، قالت لا تقل هذا ولا تسرف فى التجنى ، فما كنت أستطيع ان أمضى فى الكتابة وقد أقبلت ، وما كان ينبغى لى أن أدع المائدة مختلطة كما كانت ، قال فاذا سألتك أن اقرأ بعض هذه الصحف التى كانت منشورة فهل تأذنين ؟ قالت هذا شىء آخر ، دعنا من هذه الصحف المنشورة فستقرأها يوما ما ، ولكن حدثنى أين وكيف أستطيع ان أرى مصر والمصريين فى فرنسا ؟ قال تستطيعين أن ترى مصر والمصريين فى فرنسا الآن ، وفى هذا المكان ، وعلى هذا النحو ، ثم أخرج لها صحيفة النوفيل ليتريز ونشرها ، وقال انظرى ، فنظرت فدهشت فسكتت ، ثم قالت هذا غريب ! صفحة أدبية عن مصر لا يكاد يكتب فيها مصرى ! قال ولو ترجم

مافيها للمصريين لرأوا أنفسهم كما يرونها فى المرآة الصافية الناصعة ، اليس قد صور لهم كاتب أمير شعرائهم العظيم تصويرا لا يصفه من قريب ولا من بعيد ؟ اليس قد زعم هذا الكاتب ان قد كان لامير الشعراء خصوم كلهم بغيض ؟ اليس قد أذاع هذا الكاتب بين الفرنسيين والاوربيين الذين يقرأون هذه الصحيفة صورة عن شاعر مصر وعن انصاره وخصومه لاتلائم رأى مصر ولا حاجتها ، وانما تلائم رأى السياسة القائمة وحاجة السياسة القائمة ، ؟ قالت سأقرأ هذا الفصل ، ولكن انظر ، قال وماتريدين أن أنظر ؟ اتظنين انى لم أقرأ هذه الصفحة قبل الآن ؟ ماذا تنكرين ؟ فصل لصديقنا الاستاذ أنطون الجميل عن المجمع اللغوى الملكى ، أى غرابة فى هذا ؟ قالت وهى تضحك ضحكا حزينا ، الغرابة أن يعلن عن هذا المجمع فى فرنسا ولما يوجد فى مصر بعد ، قال لم يوجد الآن فسيوجد بعد عام ! قالت فقد كنت أحب من صديقنا ، بل كنت أحب لصديقنا أن ينتظر حتى يوجد هذا المجمع بالفعل قبل أن يكتب عنه فيطيل ، فقد أرى أن فصله غير قصير ، وما عسى أن يكتب بعد أن يوجد المجمع ؟ قال ليس على صديقنا بأس من أن يكتب عن مجمع ان لم يوجد بالفعل فهو موجود بالقوة ، ولا سيما اذا طلبت اليه الكتابة وأثقل عليه فى الطلب ، وليس اسراعه الى الكتابة فى شىء هو الى الوهم اقرب منه الى الخيال ، فضلا عن الحقيقة الواقعة هو الذى أنكره عليه او الومه فيه ، انما أنكر عليه فهمه للمجامع اللغوية وتصويره لتاريخها عند العرب ، أترين الى اسواق الجاهليين ؟ لقد كانت مجامع لغوية عند الاستاذ انطون الجميل . اترين الى قصور الخلفاء ؟ لقد كانت مجامع لغوية عند الاستاذ أنطون الجميل ، ثم اترين الى مدارس اللغة والنحو والادب فى البصرة والكوفة وبغداد وفى حلب ودمشق والقاهرة وقرطبة ؟ لم تكن من المجامع اللغوية فى شىء عند الاستاذ انطون الجميل .

هذا كثير ! الاترين ذلك ؟ قالت وأكثر منه أن يستجيب صديقنا لدعوة السياسة ، وان يرضى صديقنا لنفسه أن يضع الادب من السياسة هذا الموضع ، وقد كنت ارى أنه يجب اخضاع السياسة للادب ، لأكتبن اليه ، قال لاتفعلى ، فليس هو الآن فى القاهرة ، انه يطوف فى لبنان فانتظرى حتى تعودى ويعود ، ثم خذى معه فى هذا الحديث ، ولكن أقرئى هذا الفصل وفكرى فيه ، فهو فصل من فصول الصحف السيارة فى مصر لا أكثر ولا أقل

ولكن حدثينى اتريدين أن تطيلى الاقامة فى نيس ؟ قالت وانت حدثنى كيف وقعت الى نيس وانت تقصد الى مدينة النور ؟ قال وهل يكون النور الا حيث أنت يا آنسة ؟ قالت مغيظة : هل تعلم انك تثقل على احيانا بهذا العبث السخيف ؟ قال ما أردت هذا ولا فكرت فيه ، وما أرى انى الام ان كنت ثقيلا ، فلعل الثقل أن يكون بعض طبيعتى ؟ فخذينى كما أنا ، قالت فان لم يعجبنى منك هذا ، قال فاحتمليه على أى حال ، فلعل عندى ما يهون عليك احتماله ، اتريدين أن تطيلى الاقامة فى نيس ؟ قالت سأقيم اياما ، وانت ؟ قال سأقيم فيها ما أقمت ان لم يثقل عليك ذلك ، وسنرتحل معا حتى اذا كنا فى بعض الطريق تخلفت أنت فى مدينتك الجامعية الصغيرة فاصطليت فيها حر الصيف ونار العلم والادب ، ومضيت انا الى باريس ، ومن يدرى ، لعل نار الادب والعلم أن تستهوينى فاتخلف وقتا طويلا أو قصيرا ، وهل أنا فراشة تستهويها النار ، ولا تكره أن تحترق بها ؟ قالت فى شىء من التفكير : انت مقيم فى نيس ما أقمت ، مرتحل عن نيس اذا ارتحلت عنها ، متخلف حين اتخلف ، مصطل للنار التى أريد أن اصطليها . قال هذه خطة مرسومة ، وكيف تريدين يا آنسة أن تغيرى ما رسم القضاء ؟

طه حسين

« محمد — بقية المنشور على صفحة ٣٢ »

فلقد أبى الله سيدى ومولاى وخالقى الا أن يصحبنى فى هذه الوحدة

«حليمة» أرأيت الله يابنى ؟

«محمد» وأنت الا تبصرينه ؟ انه غير بعيد عنى ، ولا يبرح يتراءى لى عند الينبوع الدافق الهادر ، وتحت السرحة الغناء ، وفى الظل الرقيق البهى . . لقد توافى الى من عليائه فاحسست حرارة حبه ، وشق صدرى وانتزع من قلبى حوباته حتى يتاح لى ان أفهم معنى حبه ! .

«حليمة» : ولكنك تحلم ! اذن كيف يقدر لك ان تحيا وقد شق الله صدرك ؟

«محمد» سأصلى صلاتى لله فلعله يضىء عقلك فلا يبدو لك حديثى غامضا مبهما

«حليمة» : وأى اله هذا الذى تعبد ؟ أهو اللات أم هو هبل ؟

«محمد» : أى شعبى التعس ! انك لتضل السبيل وتنزع الى الحجارة والأصلاد فتجعل منها الها يعبد ! ولكننى مازلت أحبك على شديد تعسك ، وهذا الحب الشديد العنيف هو الذى يحفزنى الى مصارحتك بان هذه الحجارة التى تصلى لها لا تستطيع أن تستمع لك ، وليس فى ميسورها أن تفتح لك ذراعيها

«حليمة» : أين يسكن الهك ؟

«محمد» : انه فى كل مكان ياحليمة ! . .